اختیارات

اســـم العمـــــل	:	اختيارات
النــــــــــوع	:	قصص
تــــــــأليف	:	طه سويدى
تصـميم الغـلاف	:	عبدالحكيم صالح
إخــراج داخلــي	:	عبدالقادر فايز الهندي
الطباعــــــــة	:	اتيليه تاتش – المحروسة
الناشـــــــــر	:	الدار للنشر والتوزيع
المـــدير العـــام	:	محمد صلاح مراد
تليفـــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الإلكترونـي	:	eddar_press@yahoo.com
فـــيس بـــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع	:	٢٠١٦/٥٢٣١
التــرقيم الــدولي	:	I.S.B.N.:- 978-977-702-129-6

تكملـة لأهداف الـدار للنشـر والتوزيـع ورؤيتـها لتكـون فـي المقدمـة لإثـراء المجتمع المصري وإنارة الطريق وتقديم رسـالة وتقديم المبشر والمتميز من الشباب الجديد الذي هو أمل لهذا الشعب.

تم التوصل إلـى بروتوكول تعاون بين دار (الـدار) للنشر وجماعة (إضـافة) الثقافيـة فـي إطـار جهودهما المتصلـة في سبيل دعم الموهوبين من الشـباب المصري أعضـاء جماعـة (إضـافة) فـي مجال الأدب للوصـول إلـى جيـل من الكتاب المبدعين المتحققين يساهمون في إثراء الوسط الثقافي المصري.

٢٠١٦

اختيارات

طه سويدى

الدار للنشر والتوزيع
إضافة

٢٠١٦

إهـــداء

إلى أبى و أمى: منبع ما كان وما سيكون.

إلى الكتابة: الساحرة التى عندما تحضر يغيب سواها.

إلى من رفض ذكر اسمه: وحدك تعلم ما لا تعنيه كلمات.

ثلاث ريشات

"لقد قص ريشاته البارحة."

أتت العبارة بصوتِ صبي المقهى الحاد لتشعل همهات وصيحات الجالسين، ثم أكمل الصبى: رآه بعض الفتيان البارحة فى وقت متأخر، كان يتسلل عائدا من طرف البلدة البعيد كعادته، يقولون كان متخفيا بجلباب اسود، ولكنهم عرفوه من حذائه، حاول الهرب منهم، ولكنهم لحقوا به، يقولون بكى لما لحظوا رأسه بلا ريش ضج المقهى بالضحك مجددا .

يتحدث عن العجوز ذو الثلاث ريشات برأسه، محل نكات الجميع، حينما يمضى ، كعادته كل يوم، من بيته القديم بطرف البلدة، الى الشجرة العتيقة بالطرف الآخر، مشيعا بمجموعات من الأطفال يقذفونه بالطماطم أو البصل الفاسد.

يقولون أنه من نسل بعيد انتهى، نسل رجال الطاووس الذى عاش هنا منذ سنين بعيدة، ثم اختفى، يقولون عمره خمسمائة عام، بعضهم يقولون أيضا أنه نصف جن نصف انسان، آخرون يتحدثون عنه أنه ولى كريم عاش منذ زمن، كان كثيف الريش، يقتطع من ريشه الزاهى ويبيعه ويعطف بالثمن على المحتاجيين،

يقولون كان كلما قص ريشا نبت مكانه ريشا جديدا زاهيا، ثم انقطع نبت الريش منذ زمن، ولم تعد الريشات الثلاث زاهية، صارت مصدر للنكات وفقط، ولم يكن له ولد.

حاول بعضنا مرارا التحدث اليه، والتقرب منه، فكلما قل ريشه قل كلامه، ولم يعد ينطق سوى بكلام غير مفهوم مصحوبا بنظرات مرتابة حزينة، يهرب بعدها سريعا منا، أذكر فى عشية يوم العيد أننا حاولنا اجباره على الكلام معنا، فارتعد طويلا، وبكت عيناه، فرقت قلوبنا له وتركناه كما يحلو له.

"انظروا."

انطلقت صيحة صبى المقهى مجددا فعم الصمت المكان، وتوجهت النظرات صوب ما أشار إليه الصبى، أبصرت العجوز يقترب، لم يكن يرتدى عباءته السماوية الزاهية، ولا قلنسوته الزرقاء الصغيرة، بل ارتدى عباءة أهل البلدة السوداء القاتمة، لم يضع على كتفه حقيبته الذهبية، استبدلها بشال صوفى خشن، ارتدى نعلا أسودا مفلطحاً كأهل البلدة بدلا عن نعله الأحمر المسحوب

المقدمة، لولا وجهه الممتلأ المتورد، ولحيته الفضية الكثيفة لما عرفته.

كان يتعثر كل خطوتين أو ثلاث، بل أنه كاد يسقط فى مرة، لكنه تماسك وواصل خطواته المترددة، وقف على باب المقهى، نظر الى وجوهنا، وكأنه ينتظر كلمة لم تصدر من أى فم جالس، أدار بصره فى جنبات المقهى، ثمة مقعد فى ركن بعيد، تقدم بالخطوات المترددة متجها إليه، وقبيل أن يصل، امتدت يد صاحب المقهى، سحب المقعد بعيدا، ضحك الناس ثم أشاحوا بوجهوهم ووقف العجوز واجماً، ظل يبحث بعينيه فى فراغ المقهى، والكل يضحك، ينظر عاليا ، فيزداد الضحك، انتزع منه فتى المقهى شاله الصوفى بغتة وهو يضحك ويخرج له لسانه، لم يحرك العجوز ساكنا، ظل ينظر عاليا ثم استدار وهم بالمغادرة، لمحه بعض الصبية فتنابذوا عليه، رأينه بعض النسوة فتلين المعوذات بصوتٍ عال، تجاوزهم أخذ ظله فى الاختفاء رويدا، وصوت الضحك لم يزل يعلو فى المقهى .

وقد أحدس

انفتح الباب على مصراعيه، انتشر النور فى الغرفة، فلامس جزء من جسدى الخشبى الأسود، ولم يحالف الحظ أوتارى المعدنية لتنال قسطا من النور، فى هذا الركن البعيد الذى أرقد فيه منذ زمن فى تلك الغرفة.

دخل أحمد وبصحبته فتاة حسنة الملامح ، تضاحكا وتبادلا النكات، عرفت أنه جاء ليطلعها على مقتنيات غرفته الفريدة– كما يحلو له أن يسميها– وهذه هى عاداته مع كل رفيقة جديدة.

تحركت الفتاة فى الغرفة ولمعت عيناها بشدة عندما أبصرت كاميراته الثمينة المنتصبة على حاملها الأسود، لامستها بأناملها وقالت ضاحكة"هل هذه هى صديقتك التى أخبرتنى عنها؟"

رد ضاحكا" هى بعينها، دعيها ترحب بك على طريقتها."

ساعدها لتقف، أخبرها أن تبتسم ثم ضغط زر التصوي، فامتعضت أوتارى المغبرة من صوت الفلاش " تبا لصوته الصناعى الرتيب" هكذا تزمجر كلما سمعته، أشفق على أوتارى، مر وقت طويل منذ عزفت لآخر مرة.

تجـولا معـا، يتفقـدان بقيـة المقتنيـات، تنظـر بعينـين متسـعة الـى حواسيبه النقالة متعددة الألوان، والأنـواع، هواتفـه الذكيـة، صـور أسفاره المتعددة، اتجهت نحو كرسيه المتأرجح ، جلست ،تأرجحت ضاحكة، وهـى تتبـادل الحديث معه، توزع نظراتها بين أشيائه ، تشهق باعجاب عندما يعجبها شئ ، تمنيت لو أحظى بنظرة أو شهقة منها ، فد مر وقت طويل عندما حظيت بشئ من هذا القبيل التفتت بوجهها وهـى تتأرجح نحـو الأريكـة الكبيرة بجوارها، حيث أقبع ورائها، بدا لـى وكأنها لمحتتـى، صاحت بإعجاب، ثم قامت واتجهت نحـو الأريكة، أخرجتنى من ورائها ، أمسكتنى من رقبتى، قالت"ما هذا ؟! لم تخبرنى قط أنك تعزف الجيتار."

رد ضـاحكا "لا أعزفه، كـان ملكـا لجدى، وأخبرتنـى أمـى أنـه نوعـه فريد، وغالى الثمن فاحتفظت به ليس أكثر."

نظرت إلى الفتـاة باعجـاب، لهـا عينـان جميلتـان، لامست جسدى بأناملهـا الرقيقـة، جلسـت علـى الكرسـى، وضـعتنى علـى سـاقيها، بوضع خاطىء، لكن لا بأس هو أفضل من المقبرة خلف الأريكة، قالت فجأة "أنه حقا جميل، لابد أن جدك كان عازفا؟"

- نعم، اعتاد العزف عليه فى أيام الأعياد والمناسبات هكذا تقول أمى.

مررت أصابعها الرقيقة على أوتارى، اهتز جسدى، كدت أن أسقط لكنها ثبتتنى مجددا، لم تكن تعرف وضع العزف الصحيح ، لكن لا بأس، حاولت أن تعزف، ضربت بأظافر يدها اليمنى على الأوتار، نغمات نشاز صدرت، يدها اليسرى كانت تحاول تنويع الصوت بضغط الأوتار، لكنها كانت تخنقها فيخرج النغم متحشرجا أو مكتوما، لعجبى لم تبدى أوتاري أى اعتراض، بل ظل الوتر الأوسط يزيح بقية الأوتار حتى يظفر وحده بأكبر عدد من لمسات أناملها، كادت أن تقطعه مرتين ولكنه ظل يزاحم.

توقفت على العزف، سألته" لماذا تحتفظ به وأنت لا تعزف؟"

- حقيقة يعجبنى شكله فقط ، يمكنك الاحتفاظ به لو أردتى.

شهقت عاليا، هبت من جلستها، ضمتنى اليها،انتشت أخشابى بعطرها الجذاب، أمسكتنى من رقبتى، وضعتنى على الأريكة، مسحت بعض الأتربة عن جسدى، ظلت تمرر أناملها على

جسدى، وتداعب أوتارى بأظافرها الجميلة المطلية، شدت أوتارى قوامها ترقبا لسماع ما ستقول هذه الجميلة .

وقفت قائلة" انه جميل حقا، ولكن لو أردت أن احتفظ بشىء من مقتنياتك حتما سأختار تلك الكاميرا الجميلة."

المجنون

"سيبونى أقابله، عدّونى، اطلعلى يا ظالم، هأكل عيالى منين يا ظلمة، سيبونى يا عالم."

بهذه الكلمات كان يصرخ الأستاذ حسين موظف الأرشيف العجوز، ثائراً يحاول التملص من أذرع وأيدى زملائه الملتفة حوله لتمنعه من بلوغ مكتب المدير، كانت الجلبة عالية وصياحه لا يتوقف، فحَمَلتُ صينية أكواب الشاى واتخذت ركنا آمنا حتى لا تتكسر وأتسبب فى تلف لعهدتى.

الأستاذ حسين تبقى له على سن المعاش ربما عامين، هكذا سمعت بعض الموظفيين يقولون، وقد توفيت ابنته الكبرى منذ أشهر، وقد تبدل حاله كثيرا بعد وفاتها، واعتقد بعض الموظفيين أنه أصبح مريضا نفسيا، إذ كان لا يكف عن التأمل فى صورتها والحديث معها أو ربما يجدوه يتبادل النكات مع الصورة، حسب ما يروون.

استمر صياحه عالياً، لم تنجح أى محاولة لتهدئته، كان يصيح "اتفصل قبل معاشى بسنتين يا ظلمة! ليه يرضى مين ده، هو أنا سرقت ولا نهبت، يعنى لا مرتب ولا معاش ولا مكافأة نهاية

خدمة." كان يصرخ ويحاول مستميتاً بجسده الضئيل أن يتخلص من زملائه ويمضى لمكتب المدير ولكنه لم ينجح .

صعد موظفو الأمن إلينا، أحاطوه، خرج المدير من مكتبه، كان برفقته الخواجة مالك الشركة الجديد، تحدث المدير إليه هامساً، فدخل الخواجة المكتب و أغلق الباب، صاح المدير عاليا "أنا هعرفك ازاى تتهجم على الناس فى محل عملها، خدوا المجنون ده وحطوه فى أى مكتب لغاية لما تيجى الشرطة، أنا هحبسك يا حيوان وهخليك عبرة."

رد الأستاذ حسين بعويل صارخ "أنا مش مجنون يا عالم، حرام عليكم، اتقوا الله، أنا ورايا كوم لحم مين هيصرف عليهم، أبوس ايدك يا بيه حرام عليك."

أخذ صوته فى الابتعاد بينما كان موظفو الأمن يقتادونه جرّاً وركلاً إلى إحدى الغرف، احتجزوه فيها، ووقف اثنين منهما على بابها ليمنعا خروجه، بينما التف جمع بسيط من الموظفين حول المدير، سمعت منهم عبارات استعطاف ورجاء أن يصفح عنه، ويقدر ظروفه، ويعالج الموقف، فعدل المدير من ياقة قميصه

ورابطة عنقه ثم قال زاجراً "كل واحد يخليه فى شغله وملوش دعوة أحسنله، أنا المدير مش أنتم وأنا أدرى بمصلحة الشركة، إحنا محتاجيين نخفض العمالة عشان الأرباح والميزانية، النظام جديد كله مبنى على الكومبيوتر، والمجنون ده مبيعرفش يستخدمه واحنا اديناله فرص كتيرة، حاليا بقى ملوش لازمة عندى، من هنا ورايح مش عاوز حد يكلمنى عنه، واللى صعبان عليه قوى يمشى وأنا اعينه مكانه، انا عاوز موظفيين ياخدوا بالهم من شغلهم مش يفضلوا يضحكوا مع الصور، سامعينى؟ أنا مليش دعوة غير بالشغل وبس، يالّا كل واحد يشوف شغله يا محترمين."

دخل المدير مكتبه وصفع الباب وراءه، هبط وجوم شديد على الموظفيين، مرت دقائق ثقيلة لم ينطق شخص بحرف، حتى كسر أحدهم الصمت وقال : الصراحة هو معاه حق برضو الراجل شكل عقله تعب الفترة الأخيرة . فرد آخر "يا أخى حرام عليك، هو مفيش رحمة يا ناس، الراجل راحت منه عروسة فى عز شبابها، ربنا ما يكتبها علينا." وقال آخر "من حكم فى ماله ما ظلم يا جماعة، هو المدير وهو عارف الصح كويس." وتوالت بعدها

همهات بين تعاطف واستنكار وموافقة، وبعد ذلك بقليل ظهرت الشرطة، فتح موظفو الأمن باب الغرفة، دخل رجال الشرطة ، خرجوا بعد قليل يحيطون بالأستاذ حسين، مشى وسطهم مطأطأ الرأس وكأن ظهره محنياً، لا ينظر الى شىء، كاد أن يسقط فأمسكه رجال الأمن من ذراعيه، واقتادوه خارج الشركة. ثم جاءنى صوت بعض الموظفيين طالبيين بعض أكواب الشاى.

ذهب

كنت جالساً على سريرى عندما طرق الباب، فلم أنم طيلة ليلة أمس، تمنيت أن ينسونى، أو لا يطيلوا الطرق هكذا، قمت إلى الباب.

- هتيجى معانا؟

أجبت بنعم مرغماً.

لم أره قبل سفره، لكننى سمعت به منذ الصغر، كان أبوه صياداً عجوزاً، يتغنى به فى كل مجلس

"إبنى دلوقتى راكب البحر وبيلف الدنيا كلها"

"يوم ما هيرجع مش هنلاقى رجاله كفاية يشيلوا صناديق كنوزه"

" زمانه ركب مراكب تيجى قد بلدنا وأكبر شوية"

" بقى بيرطم لغات ولغات"

كانت حكايات الصياد العجوز تحظى تارة بسخرية أهل القرية "الراجل كبر ومخه اتلحس" ، وتارة بتعاطفهم "مسكين محيلتوش غيره، ومن يوم ما ركب البحر مشافش وشه، تلاقيه بيحكى من

خوفه وهمّه" وبعض من أهل القرية، وخاصة الفقراء، كانوا يصدقونه، يأملون فى عودة حميدة لابنه، علّه يساعدهم ويسهل لهم العيش.

مرت الأيام، ومات العجوز منذ سنوات ولم ير ابنه، وقيل عنه فى احتضاره " ابنى هيردلكم ديونكم ويكرمكم لما يرجع". دفن العجوز ومرت سنوات، ومنذ شهرين، استيقظتُ يوماً على خبر يطرق أبواب البلدة كلها " ابن عم أيوب رجع"

عاد البحارة من سفره، ونزل ببيت أبيه، أطل علينا بجلباب أنيق وعصا لها يد من عاج وفضة، ذهبت يوماً مع من ذهبوا مرحبين بعودته، وقد دسّوا وسط جُمل ترحيبهم ما يعبر عن محنتهم وأزمة المراكب، كان لا يتكلم إلا قليلاً، بنصف ابتسامة، يسأل عن أشخاص كان يعرفهم ، فتأتيه الإجابة بأنهم ماتوا، أو تركوا البلدة بلا أثر أو عنوان، تختلج شفتاه كل مرة يتلقى فيها هذا الجواب ، ينظر بملامح جامدة الى الفراغ، تعطيه ضِعف عمره الذى أخبرونى به " ده كبر ميت سنة" هكذا قالوا.

مرت أيام، كان يُرى البحّار فيها صباحا يزور قبر أبيه برفقة كلب صغير يقولون جاء معه ثم يعرج على بيت عم حمّاد، الوحيد الذى كان على قيد الحياة ممن سأل البحار عنهم، صياد عجوز أصابه الخرف، فلم يعد يتذكر شيئاً، وقيل أنه لم يعرف البحّار عندما زاره، ولكن البحّار ظل يحرص على زيارته كل يوم، نراه ليلا فى مجلسنا عائداً، يسلم علينا بكلمات قليلة، ويمضى.

تصاحبه دوما أينما يُرى الحكايات عن كنوزه التى يضعها فى بيته، بعض من أهل القرية برروا عزلته بالتعالى" طبعا مبقيناش قد المقام، ابن أيوب مبقاش قادر يعاشرنا"

" تلاقوه خد على عيشة الخواجات، وبكرة يرجعلهم"

لم أكن أشاركهم قط تلك الظنون، تلك الملامح الجامدة، والنصف ابتسامة، يده التى تحمل الكلب وتضمه إلى صدره كلما صادفه شخص، التفاتته الحادة نحو كل من يخاطبه، كل ذلك جعلنى لا أشاركهم الرأى.

بالأمس قرر جمع الصيادين أن صبرهم قد نفذ على لا مبالاته لمحنتهم، وسيطر جو من عداء وسخط على هذا الاجتماع حتى

قرروا أن يذهبوا إليه ليساعدهم برضاه أو رغما عنه، وانفض الاجتماع على ذلك، وطرقوا بابى هذا الصباح ومشيت معهم، وأنا لا أشعر بأى خير سيأتى من تلك الخطوة.

ذهبنا إليه مبكرين قبل موعد خروجه، تقدم كبير الصيادين، طرق الباب، لم يجب، طرق مجددا عالياً، لم يجب، تعالت صيحات تزمجر، تنصح، تسخط، لم يجب، دخلوا الدار عنوة.

فى الدار وجدنا صندوقين فى الصالة على منضدة، قبل أن أنطق بحرف، فتحهما الصيادون، وتخاطفوا عملات ذهبية وورقية وأحذية ثمينة، وعطور، فصاح بهم كبير الصيادين أن يبقوا كل شىء فى مكانه، تركتهم وتجولت فبصرت بابا موصداً، طرقت، لا رد، فتحته، وجدت البحار على سريره، اقتربت منه، كان مغمض العينين، يحيط بيمناه كلبه الصغير، ويده الأخرى تحيط صورا لامرأتين وشاب، وعلى صدره الثابت ترك ورقة ملفوفة، فتحتها فوجدت عبارة واحدة تقول " ذهب بلا قيمة، فكل ذى قيمة ذهب".

صورة

قرقعت بعض ذرات الحصى تحت ضروسى مجددا ، مجددة كراهيتى للخماسين و أيامها وأنا فى انتظار ممل تحت مظلة محطة أوتوبيس لم يأت بعد ، حينما تناهى الى مسامعى صوت خفيض يسأل: "مش ١١٧ بيعدى من هنا برضو؟"

تبصر عيناى الملتهبتان شخصا متوسط الطول غائص العينين والوجنتين، يرتدى بدلة بها بعض من بقايا رمادى شاحبة تحت الغبار الذى صبغ شعره النصف مصفف نصف أشعث. أجبت بعد سعال: "بيعدى بس هتستنى شوية."

"هستنى مش مشكلة."

جلس بجوارى على دكة الانتظار التى خلت من جالسيها تحت وطئة الغبار، قوَّس ظهره حتى كاد يلامس ركبتيه بصدره، يقبض بيده اليمنى على حقيبة صغيرة، بينما تكفلت يده اليسرى بمحاولات فاشلة لتعديل وضع شعره، سعلت ولعنت الخماسين مجددا، فتح حقيبته الصغيرة، أخرج منها ورقة صفراء تشققت منها الزوايا ومواضع الطى، هدهد الورقة برفق ثم فردها باطراف أنامله، أدار وجهه نحوى فجأة وسأل: هى الساعة كم؟

- الساعة اتنين .

- هانت مافضلش كتير.

كنت سأسأله ربما عن اسمه أو وجهته، أو أى شىء تافه، إلا أنه أشاح بوجهه، وهدهد الورقة مجددا ثم مسح عليها برفق، لها سطور انمحت فى أجزاء، وبهت الباقى منها، تنتشر بها بقع الحبر، بركنها العلوى صورة صغيرة انطمست ملامحها، إلا من شعر طويل يبدو لفتاة، لم أكن لأطيل النظر الا أن ثمة قطرات رأيتها تتساقط على الورقة، ولم تكن السماء تمطر.

طوى الورقة سريعاً، فركت يده اليسرى عيناه، استدار نحوى فتصنعت النظر بعيدا، سأل بصوته الخفيض: هو ١١٧ بيعدى من هنا؟

- بيعدى زى ما قلتلك بس هتستنى.
- عندى ميعاد مهم قوى، مش هينفع أتأخر عليه.
- الجو وحش، أكيد الناس اللى أنت رايحلوهم هيقدروا.
- صدقنى فى مواعيد مينفعش تتأخر عليها، أنا اتأخرت كتير قبل كده ولازم أروح المرة دى بدرى.

-   بس الجو وحش.

قاطعنا صوت محرك أتوبيس، وصل ١١٧، مر بنا ثم توقف بعد مظلة المحطة، انتفض من مكانه، باتسامة واسعة انطلق، تعثر فى الرصيف، كاد أن يسقط على وجهه، أسقط حقيبته، فانحنى ملتقطها سريعاً، توجه نحو الأوتوبيس، اقترب من الباب، ثم توقف فجأة، لم يلتفت وراءه، لم يتكلم، فقط تسمّر فى مكانه مطأطأ رأسه، علا صوت الأتوبيس، تحرَّك، ابتعد، وهو جامدا فى مكانه محاطا بالعادم الأسود، اختفى الأتوبيس، وبعد برهة تراجع بخطوات مهتزة، تداعى الى الرصيف، جلس يلامس صدره بركبتيه، ويحيطها بذراعيه، ثم فتح الحقيبة الجلدية، أخرج الورقة الصفراء، هدهدها مجددا واستمر ينظر إليها وهذه المرّة علا صوت نشيجه.

دوار

"خلى بالك على نفسك يا ولا"

أيقظتنى عبارة جدى من غفوتى فى الميكروباص، لتعيدنى مرة آخرى الى مقاومتى للغثيان الشديد الذى أشعر به بسبب طول الطريق وهدير المحرك.

كنت فى طريقى الى بلدتى لحضور جنازة جدى الذى توفى فجر اليوم.

"شغل..الله يعينك يا حبيبى، شد حيلك كده، عاوز أشوفك، غيبتك طولت قوى المرة دى يا ولا"

كانت تلك آخر مكالمة تليفونية بيننا منذ فترة طويلة ، فمنذ تسلمت عملى –تقريبا منذ عام– وأنا لم أزره، فقط كنت أهاتف العائلة من وقت للآخر فأوصى والدى أن يبلغه السلام ان كان نائما، أو نتكلم بضعة دقائق ان كان مستيقظا.

"اسمع كلامى، صحيح أنا عجزت بس لسه مخرفتش، شوفلك شغلانة هنا، الغربة ندّاهة، لا هى هتسيبك ، ولا أنت هتعرف ترجع"

مكالماتى دائما ما كانت تبدأ باعتذرات متعللا بانشغالى بالعمل وضغوطه، الطريق طويل، وهذا الغثيان الممل دائما ما يرافقنى ذهابا وايابا. دائما ما كنت اعدد هذه المبررات حتى اخفف من وقع الحقيقة عليه وعلى، حقيقة كلانا كان يعلم أنى فقط لا أريد العودة، كان يكفينى الهاتف من وقت لآخر، لم أحبَّ أن أضيع ساعات من راحاتى الاسبوعية الثمينة فى هذا الطريق الممل المرهق. لم أعد حقا أشعر بأن شيئا لى هناك.

فى الصباح، رن الهاتف بنحيب أمى، وصوت أبى الخفيض" جدك مات والدفنة بعد صلاة العصر."

ثمة ماء بارد قارس سرى فى عروقى، كان أناملى وكأنها متجمدة، لم أسقط دمعة واحدة، ربما تجمدت دموعى هى الأخرى، فقط قشعريرة تذهب وتأتى، هذا كل ما أذكره منذ عرفت الخبر حتى أفقت لأجد نفسى جالسا فى هذا الميكروباص العائد الى البلدة.

تمر بذهنى صورا عديدة تظهر فجأة كالمطبات الصناعية التى تملأ الطريق، وكلاهما يزيد غثيانى: رؤيته للمرة الأخيرة،

احتضان عمى الصغير، حمل النعش، واجب العزاء، العشاء الصامت مع العائلة.

تناوبت تلك الصور على مخيلتى، تعود مصحوبة ببردٍ قارس فى صدرى، ماء بارد فى انامل، نعم يجب أن أعود، هكذا أحدث نفسى الآن، يعتصرنى ندم شديد أننى لم أرهُ مرة أخيرة، أو أجلب لهُ نشوقاً، أو أقرأ له مقالاً مرة أخرى، على وشك أن أطلب من السائق أن يزيد من سرعته، يزداد خوفى أن تفوتنى الجنازة، فيزداد معه الغثيان والدوار.

مطب عالٍ خلع قلوب الركاب، تصايحوا، سبوا، طلبوا من السائق التأنى، صاح الساق، تضايق، ثم اعتذر الجميع، لم أشاركهم فى ذلك كله، نفس السؤال قد عاد لأول مرة منذ الصباح، نفس السؤال الذى يعصف برأسى مع كل مكالمة، عاد مجددا، وسأل:هل حقا تبقى لك شيئا هناك؟

دوما كانت أجابتى أنى لا أظن ذلك، لكن الآن ولأول مرة، قاومته، صرخت فى وجهه: نعم، بلاشك تبقى لى شيءٌ هناك، حتما سأرى حين أصل أن لى شئ هناك، نعم أنا فقط تكاسلت

عن المحاولة، وانشغلت، ستخبرنى دموعى على جثمانه بأن شيئا ما لى هناك، سيخبرنى اختضان عمى الصغير أيضا، سيخبرنى ذهابى الى بيت جدى القديم، وسيأكد لى كذلك رؤيتى لجلبابى الفضفاض الذى اهدانى إياه، لكن السؤال ابتسم وأطرق.

تبقت ساعتان على الوصول، تزداد المطبات عنفا، يهيمن الغثيان مجددا، يضيق صدرى، أشعر وكأن الهواء ينتهى من حولى، فتحت النافذة، رؤية الطريق تنهبه عجلات الميكروباص، زادت من الدوار، أغمضت عينيى، ثم رفعت صوتى: نزلنى هنا لو سمحت.

في المعرض

" متنساش عرض اليوم يا ضايع "

ابتسمت وأنا أقرأ رسالة مروان النصية التى يذكرنى بها للمرة المليون أن أذهب لأحد قاعات عرض اللوحات والصور، وأحضر عرض لوحة رسمها، ولم يحالفه الحظ ليحضرعرضها بنفسه. كنت قد انتهيت من ارتداء ملابسى، تأكدت من وجود سماعات الهاتف حتى تشاركنى الموسيقى الطريق والوقت، فلم يكن لدى شك أنى سأشعر هناك بالملل خصوصا وأنا وحدى .

مروان فلسطينى، جمعتنى به صداقة وزمالة دراسة امتدت طيلة سنين الكلية الخمس، قبل مروان كانت فلسطين مجرد شىء أشاهده فى التلفاز أو أقرأه فى الصحف، لكن هذا الأشقر صاحب الابتسامة الدائمة، والنظرة الواثقة أحيانا، والقلقة أحيانا آخرى، جعل من فلسطين شيئاً ماثلا أمامى طيلة معرفتى به، فدائما ما كان يطلعنى على صور ويحكى لى عن الضفة حيث يعيش أخواله، ورام الله حيث تسكن عائلة أبيه، لم أحتج أن أقرأ كتبا أو أشاهد أفلاما لأعلم عن عادات فلسطين، فقط كنت أشاهد مروان وهذا كان كافيا للغاية.

جاء الى مصر منذ التحق بالجامعة، دائما ما كان يخبرنى أنه لا نية لديه للعودة الى السعودية قريبا حيث تعيش عائلته، كان يقول أنه يطيب له المقام بمصر، يحب كل شيء هنا، لكن فى العام الأخير تغيرت أشياء كثيرة، تغيرت نظرة الكثيرين له، لم يعد مرحبا بأرائه عما يدور على الساحة كما كان، سمع عدة مرات من يقول عنه " ما يروح يشوف قضيته ولا يرجع بلده، هو بيحشر نفسه فى اللى ميخصوش ليه؟" أصبح مطارداً بالسؤال عن أى فصيل مقاومة يناصر، و لم يعد يعبر عن رأيه ويشرح كما كان يفعل، لأنه يعلم أن كلامه أصبح يحمل تبعات جديدة مقلقة.

عاصرت معه حرب غزة الأولى والثانية، على الرغم من هول ما حدث، لم يكن مروان كسيرا، كانت به عزة، يقول "مبيقدروش يكسرونا هالصهاينة الكلاب، حتى لو الدعم العربى الحكومى مش منيح بس بكفى الملايين اللى بيدعولنا، نصر الله قريب." ولكن تغيرت أشياء كثيرة، لم يعد يحظ بضحكات الاستحسان للكنته الفلسطينية، أصبح يرتبك اذ خانته لهجته المصرية واختلطت بالفلسطينية، ومنذ أسبوعين زارنى فى بيتى فجأة وأخبرنى أنه

سيغادر الى السعودية لظروف عائلية، كنا نعلم سوية أنها غير موجودة، فلم يقدر هو أن يخبرنى عن السبب، ولم أكن أستطيع أن أنكره. لم يعد مرغوبا فى وجوده.

وصلت الى قاعة عرض اللوحات، اجتزت بوابات التفتيش، واتجهت الى القاعة التى أخبرنى مروان عنها، مروان يرسم ويصوِّر، كان قد حاول عرض لوحاته تلك فى معرض الكلية، إلا أنها حجبت قبل افتتاح المعرض بيومين، وعندما سأل عن السبب، قيلت مبررات كثيرة وفى النهاية فهمنا أنها لدواعى سياسية، وبعد سفره بيومين، فجأته صديقة برغبتها بعرض لوحة له فى هذا المعرض، وقد وافق وقتها فَرِحاً، كان من المفترض أن تحضر هى عرض لوحته، لكنها اعتذرت لظروف مَرَضِيّة، وهنا جاء دورى.

دخلت إلى القاعة، كان بها عددٌ يسيرٌ من المشاهدين، يطوفون حول اللوحات المرصوصة على جدران القاعة الدائرية، تنتشر حلقات النقاش حول كل مجموعة لوحات لرسام معين، ويقف الرسامون بجوار لوحاتهم، يردون على رواد المعرض، يتلقون الأسئلة وتعليقات الاستحسان، بعد قليل وصلتُ إلى حيث توجد

لوحة مروان، كانت تبدو فيها امرأة فلسطينية، بملامح ملتاعة،كتب على زيها فلسطين، تحمل طفلا دامى فوق رأسها، وجسدها غير مكتمل تمحوه ممحاة كبيرة، كتب عليها التهدئة.

وقفت بالقرب من اللوحة، الفينة بعد الفينة، يأتيها أحد رواد المعرض ينظر سريعا ثم يمشى، تفقدت دفتر الأراء أمام اللوحة، كان خاويا تقريبا سوى من اهدائين اثنين، كتبا بشكل سريع، تركت الدفتر فوجدت رجلا يمسك بيده طفلا، وقف أمام اللوحة لبرهة، اقتربت أكثر منه، سمعت الطفل يسأل: يعنى ايه فلسطين يا بابا.

- هبقى أقولك بعدين يا حبيبى .

في وقت متأخر

" تحت أمرك فى أى وقت يا يحيى، شكرا على حضورك."

بهذه الكلمات ودعنى محامى أبى، معلنا قرب انتهاء مسلسل الحاحه أن أزوره، هذا المسلسل المستمر طيلة شهرين أعقبا وفاة أبى، والسبب أمانة أوصاه بها، لم تكن سوى حافظة جلدية متوسطة الحجم، سوداء اللون، لها زرّان على احد جوانبها، تشعر من انبساطها الواضح أنها خالية تماما، عموماً لا يهمنى محتواها، فقط يهمنى أننى أخيرا سأتخلص من مكالمات هذا الثرثار.

ظنى بالمحاميين أنهم قد أؤتوا من الذكاء حظا، إذاً فكيف يظن صاحبنا هذا بى اهتماما لشىء تركه والدى الذى تركنى منذ اعوامى الأولى، ولم يقترب منى طيلة ثلاثين عاما، لا اتصال هاتفى، لا زيارة واحدة ؟

عدت الى منزلى لأستعد لسهرة مهمة ، وصلت الى المنزل بعد صراع مرير مع الزحام، وقفت طويلا أمام خزانة الملابس حتى اخترت ما سأرتديه، سريعا استحممت، ارتديت الملابس، وبينما أصفف شعرى، هاتفى المحمول يرن، رسالة من أحد شركائى فى سهرة اليوم، عذراً يحيى لظروف طارئة تأجل كل شى.

بدأت جولة من المفاوضات الهاتفية مع بعض الاصدقاء من أجل سهرة بديلة، للأسف فشلت كل المفاوضات، لم أكن متفائلا بزيارة هذا الثرثار، هائنذا وحيدا هذه الليلة، وقعت عيناى على الحافظة، التقطها بغضب ورميت بها على الاريكة صائحا: كله منك يا بوز الشؤم.

كان التليفزيون مملا هو الآخر، فشلت محاولاتى لأنام، عدت الى الصالة بكوب شاى ورواية، حاولت القراءة، لكنى مللت مجددا، ذهبت إلى الشرفة وجلست أوزع نظراتى فى الفراغ، عاد الى الذاكرة لقائى مع المحامى. أى أب هذا؟ ثلاثون عاما والمسافة بينا كيلو مترات، لم أسمع منه ، أخفى نفسه عنى، والأن يترك حافظة غبية.

نظرت الى الحافظة مرة أخرى، شعرت ببعض فضول أن أعرف محتواها، تزايد هذا الفضول مع مرور الدقائق، ربما ساعده فى ذلك الملل الذى يسيطر على هذه الليلة، الآن يلح الفضول أكثر من المحامى الثرثار. هممت أن ألتقط الحافظة، لكنى خفت ان تكون الحافظة كصندوق باندورا، أن تُفتح عما يعصف بحياتى،

لماذا يقحم نفسه عالمى ميتا وقد ترفع عنه حيا ؟ لماذا ؟

انتصر الفضول فى النهاية، التقطت الحافظة بيدين ترتعشان، لم أدرِ أترتعش غضبا على أبى ؟

أم خوفا مما أنا مقدم على معرفته؟

اسطوانة مدمجة ، ضحكت فى سخرية قائلا: سخيفا فى حياتك سخيفا فى مماتك ، روادتنى فكرة سحق الاسطوانة، ردا على تلك السخرية، لكن شيئا فشيئا وسوس الفضول مجددا أن أكمل ما بدأت، أحضرت اللاب توب، قمت بتشغيل الاسطوانة، لعجبى كانت تحتوى على ملف واحد فقط ، ملف فيديو، ضغط الفضول زر التشغيل ، فغرت فاهى مما رأيت .

اضاءة متوسطة، يجلس أبى على مقعد بسيط، يهز ساقه اليمنى فى توتر، يسند ذقنه الى قبضته المضمومة، لا ينظر الى الكاميرا، بينما تظهر الكاميرا غرفة تكاد تكون خالية من أى شىء

مرت بعض الثوانى، ثم بدأ الكلام:

"ابنى الوحيد، لن أدعوك بالعزيز، فلن تجد معناها لديك، لن

أسالك عن حالك، فأنا لا أجيد المراوغة والتصنع.

لم يكن كلامه يحتاج لموسيقى تصويرية لأن زفرات غضبى قامت بالمهمة، أدار عينيه بغتة إلى الكاميرا، كانت اول مرة تلتقى عينانا منذ سنين طويلة، اعترتنى قشعريرة ومشاعر بلا اتجاه، وهو يكمل فى بطء: لن أضيع وقتك ووقتى فى اعتذار أو طلب صفح، أعرف رأيك فىَّ مسبقا، ولا ألومك عليه، لا يهمنى الآن تغييره، ولست مضطرا الى تبرير نفسى لديك."

انتفضت واقفا غضبا وقد اوقفت الفيديو وصياحى يهدر: تبا لك أيها المتعجرف، بل تبا لى أنا لاضاعتى وقتى فى مشاهدة غرورك الملعون، ابعد كل هذه السنين تأتى لتقول هذا الهراء، لا زلت تستكبر أن تعتذر عن كل ما فعلته ! حدقت فى عينيه الجامدتين فى الشاشة، ينظر الى نظرة لا معنى لها، خرجت الى الشرفة، مصحوبا بأسئلة غاضبة هل يتخيل نفسه صاحب فضل على؟ هل تناسى تجاهله الأعياد وحفل التخرج؟ أيدرى شيئا عن مرارات ذقتها بلا أب؟

جرعت بعض الماء المثلوج، هرع العرق الى جسدى يتوسل الى الهدوء، أنفاسى تعلو وتهبط عاد الفضول غاضبا هذه المرة ليعرف ماذا يريد أن يقول، جلست و ضغط الفضول زر التشغيل

مجددا.

استطرد بصوته الهادىء:

"كرهت طيلة عمرى احساسى بأنى لم اختر ما عشته ، تربيت فى بيت جدك على الطاعة وفقط ، على انقاص وزن رغبتك الشخصية امام رغبات العائلة، كبرت ونما معى تردد وخوف من كل جديد، عندما بلغت الخامسة والعشرين تعاظم داخلى احساسٌ لم أتخلص منه حتى تلك اللحظة، لازمنى طيلة عمرى، احساس ان الوقت تأخر وقد فاتنى الكثير.

تزوجت امك بالحاح من جدتك، اريد أن أحمل ابناءك، هكذا كانت تقول، بعد ولادتك أدركت أننى كررت الخطأ، اخترت مالا أريد، لمارغب يوما ان أكن أبا، لم اعرف الولاء لامرأة واحدة، وبذلك كنت انت ايضا واقعا لم اختره، فتركتك وامعنت فى الابتعاد عنك، فى كل الاحوال كنت ستحظى بأب سىء، فتركتك لحياتك،

وذهبت لحياتى، لم اكن على استعداد لامكث مجددا فى عالم لا أرغب فيه ."

"انا لم أندم يوما على ما فعلت، فالحياة أقصر من أن اضيعها فى ندم، عشت حياتى اتمسك بكل ما اخترته، تجرعت مرارة اختيارات خاطئة، وشربت عسل اختياراتى الصحيحة بكل فخر" توقف فجأة، أطرق، ثم نظر مجددا الى وابتسامة هادئة ترتسم على شفتيه، قال بصوت متهدج:

إن كنت تشاهدنى الأن فأنا أشكرك كثيرا، وأظن أن سعة صدرك التى حملتك ان تشاهد خليقة بأن تتحمل بضع كلمات اخرى منى: عش حياتك كما تحب، اختر كل شىء، لا تبكِ على ما ضاع، لا تسمع لأمك كثيرا، حبها الشديد لك سيمنعها من رؤية اى صواب يؤلمها ، أو يباعد بينك وبينها، أما أباك فقد كفاك شره.

قال عبارته الأخيرة ، فتوقف الفيديو بعدها مباشرة و الصورة لا تزال تنقل ابتسامته ونظرته الى ، قشعريرة غريبة ممزوجة بحيرة سيطرتا على، ظللت لوقت لا أعلمه محدقا فى صورته ودموع دافئة تنحدر على وجنتى .

كوباية شاى

قاربت الساعة تمام الرابعة عصراً، وقد اقترب وقت الذروة على الانتهاء، كنت واقفا أمام باب محل الملابس الخاص بى، أشارك بقية زملائى من أصحاب المحلات والعاملين بها الملل والضجر، على الرغم من اقتراب العيد إلا أن المبيعات شحيحة جدا، الناس تمضى أمامنا غير مهتمة، لا ينظرون حتى إلى ما نعرضه، كنا عقدنا الأمل– ككل يوم– أن يأتى بعض الزبائن بعد انتهاء ساعات العمل، ولكن ككل يوم فى الفترة الأخيرة خاب ظننا، قرر بعض الزملاء الذهاب لمنازلهم طلبا لبعض الراحة، بينما قررت أن أبقى مع اثنين من زملائى رفعت، وعلى، لعل زبوناً طال انتظاره يأتى.

قمت وقد نويت أن أخفف من حدة الملل و قلت "أنا هعمل شاى تشربوا معايا؟"

- اعمل يا سيدى مش هقولك لأ؟
- اعمل يا عم ما احنا مبقاش ورانا غيره فى اليومين الهم دول.

ضحكت عالياً وقلت: طول ما انت إتم كده الزباين عمرها ما هتعتب محلك.

دخلت المحل، أحضرت الأكواب الثلاثة، وضعت السكر والشاى بهم، قمت بتسخين بعض المياه، قبل أن أصب الماء، تذكرت عم أحمد البائع المتجول الطيب، ترددت قليلا، ثم صببت كوباً رابعاً ،حملتهم على الصينية وخرجت إلى زملائى.

قال على "تسلم يا عمنا."

أعقب رفعت " تسلم يا كبير الحتة، انما أنا شايف كوباية زيادة، دى كمالة ولا ايه؟"

ضحكنا، ثم قلت : لا دى هوديها لعم أحمد.

سكتنا ثم قال رفعت "هو احنا مش انتهينا من الموضوع ده ولا اللى بنبات فيه هنصبح فيه بقى يا عم الممل."

- يا جماعة ميصحش برضو احنا داخلين على عيد.

صاح رفعت" طيب علىّ الطلاق لو شرب منا شارب."

رد علـى "اهدى يـا رفعت، ثم أردف :أنـت يـا حسـن مبتـزهقش مـن الموضوع ده."

- قله يا على، يا عم قولنالك ابنه ارهابى ممسوك فى قضية وخـلاص هيتحكم عليـه، كيميا هـى مش عـارف تفهمهـا ! ناقصيين احنـا شبهة يـا عـم حسـن، ناقصيين احنـا سين وجـيم مــع الحكومــة، مــش كفايــة كــل شــوية حمــلات وقصص، مش كفاية الموسم متنيل على عين اللـى جابتـه ومش جايب حتى تمن البضاعة.
- يا رفعت ما احنـا مشّيناه بعيد عن ناصيتنا، واديك شـايف اهو قاعد قرّب محطـة الأتـوبيس بـيهش ومحـدش بيقولـه إنت فين، أهو كـان زمان بيسترزق علـى حسنا، الله أعلم بظروفه يا أخـى دلوقتى، وبعدين فـى الأول و فـى الآخـر الراجل مشوفناش منه حاجة وحشة .
- يـا عـم إنـت مبـتفهمش؟ بقولـك ابنـه الأمـور ممسـوك فـى قضية إرهاب، يعنـى كـان ممكن يقتل أى حد فينـا، بـلاش

يا سيدى، الراجل ده لو افترضنا انه مش زى ابنه، يبقى مشبوه وهيجيبلنا وجع الدماغ، ابعده عننا أبوس ايديك.

- رفعت الواد لسه متحكمش عليه، لسه الجلسات شغالة، مش جايز يطلع برئ يا أخى !

تدخل على وقال" حسن بلاش أحلامك الوردية دى والنبى، برئ ايه يا عم، هو اللى بيتمسك فى السكة دى بيطلع، الواد ده خلاص انتهى، و مش بعيد ياخدوا أبوه وراه، ريّح دماغك يا حسن وخلينا فى أكل عيشنا وابعدنا عن زن الحكومة الله لا يسيئك."

لم نشرب الشاى، بضع ساعات مرت ثم ذهب رفعت وأغلق محله، ولحق به على، بقيت وحدى، لربما تنفرج الأمور فى المساء، ومن وقت لآخر، كنت أبصر عم أحمد جالساً على كرسيه لا يبارحه أمامه منضدته الخشبية وعليها القداحات والقبعات الملونة والكوفيات والجوارب، نعرفه من ثلاث سنوات، رجل طيب، ذو وجه ممتلئ بشوش، ولحية بيضاء، كان دائما يضحك، يداعب الكل خصوصا رفعت عندما يحتد كالعادة فيقول له "لو تهدا بس يا عم رفعت رزقك هيجى بالدليفرى" .

كل ذلك اختفى منذ أكثر من عام، بعدما قبض على ابنه، لم نعلم أى شئ عن ملابسات القضية، سوى أنه اعتقل بعد مظاهرة، احتجز عم أحمد فترة بعدها للتحقيق، وجاءت السلطات لتحقق مع من يعرفونه فى المكان، وكنا نحن الثلاثة ممن استدعوا للتحقيق، فقد كان عم أحمد دائم التواجد عند ناصيتنا، فيستفيد من زحامها بزبون أو اثنين، فلما حدث ما حدث، قرر الزملاء إبعاده عنا اتقاء للشبهات، بل وقلصوا علاقتهم به الى حد تجنب السلام نفسه.

تأخر الوقت، ولم تتحق أمنيتى أن يأتينى بعض الزبائن متأخرين، حسنا حان وقت المنزل، حملت مقعدى وأدخلته الى المحل، خرجت لأغلق الأبواب، نظرت الى آخر الشارع، كان عم أحمد لا يزال جالسا فى مكانه، لا تبدو على جلسته أى نوايا للرحيل، راودتنى فكرة الشاى مجددا ،وتصاعد ايقاعها قويا، دخلت المحل صنعت كوبين ومضيت اليه.

كان جالسا على الكرسى، وقد أسند رأسه على يديه فوق المنضدة، وضعت كوبى الشاى على منضدته، وقلت : مساء الخير يا عم أحمد . لم يرد

- عم أحمد أنت نمت ولا ايه؟

لم يرد . فهززته بقوة، كان يتصبب عرقا، أبصرت أمامه علبة أقراص دواء السكر الخاصة به ،كانت خاوية، هززته مجددا، لم ينطق، انحنيت ووضعت أذني على صدره، كان يتنفس، فصرخت عاليا : إسعاف يا اخواننا، حد يتصل بالاسعاف، اندفع الى بعض المارة، منهم من أخذ يجفف عرقه، وآخر كان يرش بعض الكحول ليساعده فى الاستفاقة، قبل أن يُقبل أحد المارّة مسرعاً يقول "ايديكوا معايا ننقله فى عربيتى ."

محجوب

"عقلك فى رأسك، تعرف خلاصك يا عوضين، محجوب ميتزعلش عليه" بهذه العبارة أنهى الشيخ منعم زياراته لى والتى استمرت طويلاً، قبل أن يستجوبنى غداً على مرأى ومسمع أهل البلدة جميعاً، فى ساحة الحقل القديم.

قبل أسبوع، استيقظت البلدة على نبأ غرق شقيق الشريف المتأخر ذهنياً، وجده المزارعون فى الصباح طافيا على مياه القناية، وبهذا طاف منادى البلدة، ولم يقل المنادى أن بعض المزارعين قالوا أنه كان مطعوناً أيضاً.

وبدأ شريف البلدة وحرسها تحقيقا فى موت شقيقه، فلم يصدق أحد أن المسكين غرق وحسب، فكل البلدة تعرف كراهية زوجة الشريف له، وكذلك الخزى الذى يشعر به الشريف بسببه، ولما رزق الشريف بولده الوحيد، تجلى كل ذلك حقيقةً واقعة، وصار من الصعب الاقتناع بأن شقيق الشريف مات غرقا وحسب.

بعد أيام من مصرعه، عرفنا أن الشريف اتهم الفتى محجوب بقتل شقيقه المختل، وعزز الاهتمام شهادة اثنين من كلّافى الشريف

بأن شقيقه ومحجوب شوهدا بالقرب من القناية فى نفس التوقيت قبل مقتل الشقيق بليلة .

محجوب من أيتام البلدة، لا ينطق سوى بأصوات بها عذوبة، طويل القامة، حافى القدمين كبيرهما، شديد سواد الشعرطويله، له عينان شديدتا السواد والبياض واسعة، تثير خوف الكثير من أهل البلدة، فكثير منهم يظنون أنه يرافق الأرواح والجان، كان أبوه مزراعا فقيرا لم يترك له سوى جرن ضيق، يبيت فيه مع الكلاب والقطط، أما فى النهار، نشاهده يمشى بجلبابه الممزق يحنو على الماعز أو بعض البقرات، نراه يسقيهم، ويأكل معهم، أو يلاطف بعض الحمير التى التهبت ظهورها من عصى مالكيها، فيظل يغسلها بالماء، ويطعمها، بعض الناس كان يستحسن فعله هذا فيكافأ الفتى بثمرة أو رغيف، والبعض كان يتطير منه فيزجره سبّاً، أو ركلا، لم يكن الفتى يرد سوى بصرخات قليلة ويعدو بعدها مبتعدا تصحبه قطة أو كلب، وقد يُرى من وقت لآخر يفترش العراء، ويضم كلباً أو دجاجة الى صدره وهو نائم، لم يكن يهتم بأحد، ولا يطلب شيئاً من أحد وعليه فلم ينشغل أهل البلدة به قط.

لما سمعت أن الشريف اتهم محجوبا، ولما عرفت سند الاتهام، قصدت البارحة الشيخ منعم كاهن البلدة، كل ما فى الأمر أننى عندما رجعت من الحقل ليلة مقتل شقيق الشريف شاهدت محجوبا يعبر أمام بيتى متجها فى طريق جرنه، وأنه بعد هنيهة جاء مرة آخرى وافترش العراء قبالة البيت، خرجت لأمره بأن يمضى بعيدا فوجدته نائما، فتركته، فظل مفترشا العراء حتى الصباح عندما خرجت متوجها الى الحقل .

أخبرت الشيخ منعم بذلك فربت على كتفى، وثمّن مجيئى له وأخباره بهذا الأمر، وأمرنى بألا أخبر أحداً، وأخبرنى أنه سيزورنى غداً فى منزلى.

جاء اليوم وحمل معه الشيخ منعم، طرق بابى مبكراً، دخل الى البيت، قدمت واجب الضيافة ، سألنى عن أحوالى وعن طفلاى، ثم قال " العيد قرب يا عوضين، كل عام وأنت طيب، قلّى يا ابنى معاك اللى يفرّح عيالك ؟ ولا الرزق ضيق اليومين دول؟"

- مش هخبى عليك يا مولانا، أنت عارف، الدنيا ضيقة الموسم دِه.

- ميهمكش يا عوضين، الشريف عارف وشايف، ومش هيتأخر عليكم، وناوى يفتحلكم تكية العطا بتاعت الست هانم كم يوم قبل العيد.
- صحيح يا شيخ منعم؟ بس هو مش بيفتحها أول كل سنة بس؟
- الشريف راجل أصيل، هيراعى ظروف الموسم الشاحح.
- ربنا يكرمه ويكرمك يا شيخ منعم.
- يا عوضين، إنت ابن حلال من يومك ومحدش شاف منك حاجة وحشة، اسمعنى كويس، متجبش سيرة لحد بموضوع محجوب ونومه عند بيتك فى الليلة اياها، سيب الأمور تمشى زى ما المولى رايد لها.
- ازاى الكلام ده يا شيخ منعم؟ ده كده هيشنقوا الواد الغلبان بَلا ذنب.
- انت وراك كوم لحم يا عوضين، فكّر فيه، وبلاش تتدخل فى اللى ميخصكش.
- يبقى كلام الناس صحيح يا شيخ منعم، الست هانم هى اللى دبّرت ده كله عشان ورث ابنها.

هبَّ الشيخ منعم من مكانه وصاح "اخرس قطع لسانك، إياك تجيب سيرتها تانى ، أما انك غبى ودِنِى صحيح."

- بس ده ميرضيش المولى يا شيخ منعم، مش ده اللى علمتهولنا؟

جلس الشيخ مرة آخرى، سكت قليلا ثم قال "بص يا عوضين، المولى فوق، واحنا تحت، احنا اللى عارفين أحكامه وشروطه، وعارفين مفروض تتطبق ازاى، متشغلش أنت دماغك باللى يرضيه، اسمع كلامى وهو هيرضى عنك، وبعدين اسمع، المولى أراد أن ده يحصل عشان محجوب ياخد جزاؤه.

- جزاؤه؟

- إيوه جزاؤه، دِه عيل نِجس، ولّا أنت متعرفش هو– استغفر المولى– بيعمل ايه مع البهايم ، لعلمك بقى اتنين من الخفر شافوه وقالولى .

سألت باستنكار: الخفر ولا الكلافين يا شيخ منعم؟

قام من مكانه ثم تنهد بعمق قائلا "أنا قلت اللى عندى يا عوضين، فكّر فى كلامى وفى عيالك كويس، وافتكر انك صاحب عجز، وبلدنا أوتك من يوم ما جيت أنت وأمك، هشوفك بكرة فى الغيط القديم، هسألك قدام الخلق كلها، عقلك فى راسك تعرف خلاصك يا عوضين."

فى الصباح، تأكدت أن طفلاى نائمين، وأن بالبيت طعام لهما ولأمهما، عقدت العزم على عدم الذهاب لتلك المحاكمة، لكن الباب طرق، خفير وأحد أتباع الشيخ منعم يطلبان منى الحضور إلى الحقل القديم .

سيق محجوب وسط الخفر بعد أن وصلت بقليل، كان يوزع نظراته صامتا فى وجوه الناس، يتبعه صحب من بضع كلاب و قطط، يركلهم الخفر كل حين، فيصيح محجوب صيحاته العذبة الغير مفهومة، قيدوه فى جذع نخلة، تلا الشيخ منعم الاتهام والسند، ثم استدعى الشهود، سأل بعدها عن أى إفادات من الحضور، كان ينظر إلىّ فأطرقت، حل الخفر محجوبا من النخلة، واقتادوه الى المشنقة، لأول مرة يقاوم محجوب، ظل يصيح، ويركل الأرض،

لكن الخفر تكالبوا عليه، ركلوه، ضربوه بكعوب البنادق، اصطبغ وجهه بالدم، وتلوث ثوبه المهلهل بالتراب، كنت أسمع نباح الكلاب، ومواء القطط، وصياح الديكة، جميعها يزداد بجنون وهو يقتادونه.

تدلى جسد محجوب مشنوقا فى باحة الحقل القديم، ظلت الكلاب تنبح وتعوى، بينما أطرقنا جميعا، رفعت رأسى فأبصرت الشيخ منعم ينظر إلىّ، لم أفهم مكنون نظراته، وانصرفنا جميعا صامتين .

لم يعلم أحد أين دفن محجوب، وبعد شنقه بأيام أحرق الخفر جرنه، ثم أنهى الشريف الحداد على أخيه بعد شهر .

كنت عائدا الى دارى عندما سمعت المنادى يعلن انهاء الحداد وفتح تكية العطا من غد لمدة أسبوعين، مررت بالقناية، سمعت امرأة تصرخ، وتستغيث بأن المخاض ألم بها، ربطت حمارى، وذهبت لأساعدها، ثمة شىء ما ثقيل سقط فوق رأسى، واسودت الدنيا.

ضفيرة

ارتفع صوت صرير المترو عالياً وتحركت أبوابه ببطء لتنغلق عندما نجحت بأعجوبة أن ألحق به وأدخل العربة، كان يوما طويلا شاقاً، أسندت ظهرى إلى الباب، أرخيت جفونى الملتهبة قليلا طمعاً فى بعض من الراحة، سمعت صوت أنثوى ينادى عاليا بنبرة لا تخلو من تعب "حد عاوز مناديل ، مناديل حد عاوز." ترددها بشكل رتيب بصوت يرتفع عند البداية ويخمد رويدا رويدا حتى لا أكاد أسمع آخر ما تقول، فقط أخمنه .

تبدو فى آخر سنين مراهقتها، حسنة القوام، لها وجه بين الطويل والمدور، بعينين ضيقتين بلون السماء، وشفاهٌ مزمومة على وجه به أثر خمرى انزوى تحت وطأة ارهاق واضح وغبار يوم طويل. القطار كان يمشى ببطء ممل، أثار حفيظة الركاب، كانوا متوسطى العدد، يتذمرون بأصوات مهمهة لا أفهم معظمها سوى كلمات مثل "يا مسهل" "ما ينجز بقى " "عاوزيين نروح" وكان صوتها يقطع همهماتهم بايقاعه الهابط " حد عاوز مناديل...مناديل حد عاوز"

توقف القطار قليلاً، انطلقت الزفرات والتنهيدات الغاضبة، شعرت أن ساقى قد قاربتا على التداعى، أخرجت الجريدة من حقيبتى، وافترشت الأرض، أبصرتها تجلس هى الأخرى بمقابلتى، وضعت حقيبة المناديل أمامها، أسندت رأسها على ركبتيها المضمومتين لدقائق قليلة، ثم رفعت رأسها، أخرجت حقيبة صغيرة، فتحتها، أخرجت منها شيئا أفصح عن نفسه كونه مرآة، فتحتها، تأملت ملامحها برهة، كان وجهها مكسيا بملامح منقبضة، تحسست عينيها المنتفختين، حاولت أن تعدل من وضع طرحتها، يمينا، يسارا، الى الأمام قليلا، إلى الخلف، زفرَت فى ضيق، فَكّكَت طرحتها، وضعت الدبابيس بفمها، أبانت شعرا بنيا جميلا، عدّلت من ضفيرتها الملفوفة على شكل كعكة، سمحت لها أن تنسدل على كتفها الأيمن، هدهدتها بيدها ثم لفتها برفق لتصنع كعكة جديدة، حسنٌ شديدٌ أطل منها، ثبتت طرحتها مجددا ببطء ودقة، سَمِعتُ همهات من سيدات بالعربة، ميزتُ إحداهن تقول "شوف يا ختى البت وقلة أدبها ، ما تقلع هدومها أحسن". فردت أخرى" مستتنية إيه من واحدة سرّيحة، ربنا يستر على

ولايانـا." جـالسٌ بجوارهمـا رجـل كـان يسـدد نحوهـا نظراتــه، واستمرت الهمهمات.

تحرك القطار مرة أخرى، وتحرك شاب نحوها بتمايل، كانت لا تزال جالسة، وقف أمامها، وقال "هى المناديل بكام يا عسل."

- بنص جنيه.
- إنتى نازلة فين يا عسل.
- ميخصكش.
- الله جرى إيه يا بت متتكلمى عِدِل.

أعقب قوله بلكزة قوية، فانتفضت من مكانها، وكادت أن تصفعه فأمسك بيدها وطرحها أرضا، تحرك بعض الركاب، فصلوا بينهما، كان الشاب يكيل لها السباب، فردت بالمثل، وفتحت حقيبتها، وقذفته بزجاجة طلاء الأظافر، وهو يواصل السباب، و بعد دقائق وصل القطار إلى المحطة، نزلت الفتاة، مشت بخطوات ثقيلة، عدلت من وضع حقيبتها على كتفها، نظرت نحو القطار مرة آخرى، وبصقت عليه، انغلق الباب، قمت من مكانى، تابعتها حتى اختفى القطار فى ظلمة النفق، عاد الشاب

الى صاحبيه، يضحك، يسبها، يصفها بالعاهرة، لم أود أن أرد أو أتورط، لا أريد أن أعود الى منزلى بأى اصابات، سمعت سيدة تقول "عيل قليل الأدب " ردتا سيدتين" لأ، هى اللى بنت قليلة الرباية، مش شايفة قاعدة ازاى ومطلعة مراية وبتكشف شعرها، تلاقيها واحدة من اياهم بتعرض نفسها، ولّا طولة لسانها..."

قاطعهن صوت مكبر الصوت يعلن أن القطار لن يكمل مساره وأنه سوف يتوقف فى المحطة القادمة.

نشـــــاز

دوى التصفيق طويلاً وجميلاً، مرصّعاً بالصافرات، وصيحات الاستحسان من حسناوات الحضور، عندما انتهيت وأصدقائى من العزف فى حفل بسيط .

عادة ما أغمض عينىّ طيلة العزف، ولا أنظر لأحد، فإن انتهيت أفتحهما ببطء حتى لا يؤيذينى الضوء، ولكن الليلة لم أفعل، فبعد المقطوعة الأولى، وقع نظرى عليها، تنظر إلىّ، قرأت فى عينيها الجميلتين إعجاباً بالعزف، تكرر مع اللحن الثانى بشكل أروع، لم تذهب عيناى بعيداً عنها ، أطربتنى كثيرا كلما وضعت يديها حول فمها وصاحت، أو عندما تقفز بطفولية وتصفق، شعرها كان يتطاير تحت تأثير قفزاتها أو الهواء، يتطايرمع ردائها الوردى بشكل جميل أخّاذ، تركته يوجهنى طوال الحفل .

لما انتهيت من العزف استمرت نظراتنا، كنت أبادل الحضور التحية، وأعود إليها، وهى كانت تحاول أن تتقدم فى الطريق إلى المسرح بابتسامة قمرية .

أمسكتنى يد من كتفى، التفت، كان صادق زميلى يضحك قائلا: كنت ملعلع النهاردة يا نجم، الله ينور.

صادق لا يثنى على أحد أبداً "القيامة تقوم لو صادق عجبته حاجة" هكذا كنا نقول عنه، ابتسمت له، ولم أقل شيئا، لابد وأنه اندهش من رد فعلى، لم أكن حاضرا معه سوى بجسدى، كل حواسى كانت معها حيث تقف وتحاول التقدم نحوى، عدت إليها بنظراتى، كانت فى مكانها تبدو عليها حيرة جميلة، تجعلها فى ثوبها الوردى أقرب الى تخيلاتى عن الحوريات أو عرائس البحر، تعدّل من وضع شعرها، فترانى، تبتسم لى، تنظر حولها وترفع كتفيها مبتسمة، كأنها تخبرنى أنها تريد أن تصل إلى ولكن الزحام شديد، ترددت فى مكانى، هل أذهب إليها؟

تحرك الزحام حولى ووجدتها تقترب، نظرت خلفى ربما تنظر لشخص آخر، عدت التفت إليها فوجدتها تضحك من فعلى وترفع حاجبيها استغرابا مصحوباً بابتسامتها الساحرة، ترى كيف صوتها؟ ماذا ستكون أول كلماتها؟

ربما تبدأ "هاى أنا نيرمين." لا ربما هديل، هايدى؟ نعم يروق لى أن تكون هايدى، هل سأتلعثم؟ سأبدو بارداً كالعادة بلا شك، لا أريد التعجل، ربما ستثنى على عزفى وتمضى ليس أكثر، نظرت

خلفى مجدداً، وضحكت هى بشدة من فعلى مجدداً، حسناً ماذا بعد الثناء على العزف، ربما سنتبادل أرقام الهاتف، سأدعوها للحفل القادم، سأفعل أى شىء لأراها مجدداً.

تقترب المسافة، والابتسامة القمرية تزداد سحراً كلما اقتربت، تذكرت أنه بعد الثناء على العزف والمكالمات سيأتى ذكر الأماكن والعناوين، هل أخبرها أنى غريبٌ أعيش فى نزل بسيط؟

ربما لا يطل القمر فى ابتسامتها مع مرور الوقت لو عرفت ذلك، ربما ستمتعض مثل ، أو ربما سبتسم بدبلوماسية كاشفة فقدانها للاهتمام، أو ربما سأكون قد رميت بأول حاجز بيننا، لا بأس سأخبرها بعنوان وهمى ثم أوضح لها لاحقا، لا ... سأتحاشى الكلام عن العنوان، أنا فقط أريد أن أراها مجددا، وليحدث ما يحدث بعدها.

–هاى

انتزعتنى من أفكارها بصوت تجاوز كل تخيلاتى، وخصلات شعر بنية تداعب فمها الصغير المبتسم .

– أنا هايدى، عاوزة أقولك انك بجد رائع، أنا سمعت اللحن ده كتير، عمرى ما استمتعت بيه زى النهاردة، أنت بجد هايل.

– أنا حسام، متشكر جداً على زوقك. ازدرت ريقى ببطء، كانت تنظر إلى بنفس الابتسامة والنظرة، لم أكن أعرف أى كلمات أنتقى لأقول وهى لازلت تبتسم لى.

– أنا مبسوط جدا انك اتبسطى معانا النهاردة، إنتى بتحضرى حفلات كتير؟

– يعنى من وقت للتانى، بس ناوية بعد كده أحضر حفلاتك، عزفك حلو جداً.

– لو تحبى احنا هنعزف تانى كمان يومين، يا ريت تيجى، الناس اللى بتحب المزيكا زيك هما اللى بيشجعونى، هكون مبسوط جدا لو شفتك.

وددت لو أخبرها ذلك، لو أطيل فى الحديث، أتبادل معاها الاطراءات، ربما أرقام الهاتف أيضاً، ولكنى قلت: متشكر جدا على زوقك، نورتينا النهاردة، عن إذنك .

لا يزال الباب يصفق

استيقظت مفزوعا على صوت باب الشقة يصفع بعنف، انكمشت فى غطائى، ضممت ركبتى إلى صدرى، ربما لأهدأ من أنفاسى اللاهثة، أو لأمنع قلبى الراكض من تحطيم صدرى، عرق بارد تقطر على جبهتى، اعتدلت ببطء فى السرير، تذكرت مجدداً أنه لا يوجد بالبيت سواى، وأن الباب يصفع بعنف منذ أسبوع فقط فى مخيلتى.

مر أسبوع منذ رحلت، أو لو شئت الدقة منذ دفعتها للرحيل، أسبوع وليلة رحيلها تطاردنى، تكرر نفسها، لا بل هى ماثلة كل يوم، انقباضة مع الصباح تزداد بمرور اليوم، تمنعنى من الطعام، وعند المساء يطعن صوت سحابات حقائبها رأسى طعنا متواصلا، تتزاحم أفكارٌ كثيرةٌ، تضغط جمجمتى، تخض رأسى خضاً يفقدنى الوعى، وبعد قليل استيقظ على صوت الباب يُصفع بعنف، كأنه صرخة اعتراضها وحزنها الأخيرة بعد أيام من دموع وحسرة.

هى لم تعلم أن ثلاثين دقيقة تكفى لينتهى كل شئ، ربما لو علمت لن تصدق.

تسيل دموعها متسائلة " لماذا؟"

أجيب بعد صمت: هذا أفضل لى ولكِ.

- هل أخطأت؟

- لا، لم تخطئى.

- حسنا لماذا؟ ألم تعد تحبنى ؟

أصمت مجددا.

ثلاثون دقيقة فى مكتب رئيس العمل، غيرت أشياء كثيرة، خُيّرت خلالها بين السكوت، أو فقدان كل شىء، الكل يعلم أنى لم أوقع تلك الورقة، نظراتهم وهمهاتهم تخبر بذلك، لكن الكل اختار أن يشهد ضدى، لأخير بين السكوت، وإنهاء خدمتى بالتراضى، أو عدم السكوت وتحمل العواقب.

تصرخ فى وجهى "من أين أتيت بكل هذا التبلد؟ ماذا أصابك؟ كن شجاعا مرة وواجهْنى بما تخفى؟ من هى التى تريدنى أن أرحل من أجلها؟"

قلت مطرقاً "أخبرتك أنه لا يوجد أحد، فقط أرى أنه من الأفضل أن ننفصل."

تصرخ "أنظر الى فى عينى وأنت تخاطبنى، لا تستطيع، أليس كذلك؟ يالك من أنانى جبان."

تركض باتجاه الباب تصفعه بقوة، أتهاوى على الأريكة والعرق البارد يقطر، كان هذا منذ عشر أيام.

صَدَقَت، أنا الآن قد جبنت الحياة، كذبت عندما وعدتها السعادة، هل حقا أحبها؟ أنا الآن لا أدرى شيئاً، لا أعرف شيئاً سوى أنه من الأفضل أن أحمل عبء نفسى فقط، لن أستطيع أن أحميها بعد اليوم، فأنا لم أقدر على حماية نفسى، ستكسرنى أى رياح بسهولة، فلماذا تتكسر هى معى؟

مرت ثلاثة أيام وأنا أعيد متتابعة الأسئلة تلك على نفسى، أفكر أحيانا كثيرا وأحيانا قليلا، وكل مرة أنتهى لنفس الاجابة، حتى انفتح باب الشقة منذ أسبوع، كانت هى، تبدو ممتقعة جامدة، أخرجت حقائبها، أخذت كل ملابسها وأغراضها، عبأت كل الهدايا والصور فى حقيبة سوداء ألقتها أمامى فى القمامة، شدت سحّابات حقائبها بشدة مصدرة صريرا عاليا، لم تنطق بحرف قط، فقط وقفت أمام الباب لدقيقة، لم تستدر إلى، ثم صفعت الباب،

وكأنها تلعننى للمرة الأخيرة، لم أشعر نحوها بأى غضاضة، كنت متأكداً من حبها لى، ولكنى شعرت أن من الأفضل أن ننفصل.

الآن وقد مر أسبوع، يصفع الباب كل ليلة، أستيقظ مفزوعاً، قررت أن الانفصال أفضل، ولكنى الآن وبعد أسبوع أكتشف أنى صرت بالفعل وحيداً، لم أحسب أن الوحدة سترهقنى هكذا، ظننت أن همى وحدى سيكفينى، شعورى بإنقاذها من ضعفى سيدعمنى على تجاوز فراقها، ولكن كل ذلك لم يحدث، وظل الباب كل ليلةٍ يُصفع.

صوت الهاتف يعلو، هى.

هل ستسألنى الرجوع؟ ربما ستخبرنى مجددا أنى جبان، هل ستسألنى مجددا عن السبب؟ ربما نسيت شيئا؟

اشتقت إلى صوتها كثيراً، أخذت الهاتف، ضممته إلى، قلبى يدق ضلوعى راجيا أن أرد، قرارى يزجرنى و يأمرنى بعدم الرد، لا أدرى ماذا أفعل، لست متأكداً من شىء.

انكمشــت مجـددا فــى ســريرى، ضــممت ركبتــى الــى صــدرى، استسلمت للعرق البارد، وأغلقت الخط.

مُكالمة

استيقظت على رنين الهاتف، فتحت عينىّ بصعوبة، لم أنم طيلة ليلة البارحة، مددت يدىّ ترتعشان لألتقط الهاتف، كاد أن يسقط، أبصرت برؤية مشوشة صورة هدى على الشاشة، أغلقت الخط، كما أغلقته طيلة الليلة الماضية أمام كل المكالمات.

تمر اليوم ثلاث سنوات على اختفاء ياسمين من حياتى، علاقة دامت لأكثر من عام، وانتهت فى غضون شهر من الاختفاء المفاجىء، أعقبه خبر زواجها الذى وصلنى صدفة كما وصل كل من عرفنا، يومها قالوا لى "لا تلمها كثيراً،هى تريد حياة مستقرة، ولم تكن أنت لتقدر على ذلك، فلا تلمها أو تكره ما فَعَلَتْ، بينما ظل أصدقائى يرددون أنها لا تستحق، وعلىّ أن أدعها وأنسى، وحتما سأحب غيرها يوما ما، وسأجد سعادة بعيدة عنها، ولكن تمر ثلاث سنوات، وما زالت ذكرى هذا اليوم تثير فىّ التوعك والأرق، أشعر بقبضة خانقة تمسك أنفاسى وقلبى كل عام، وتظل الحقيقة ماثلة رغم محاولاتى تجاهلها، وهى أننى لم أتعاف من ياسمين بعد .

تتصل هدى مجددا، أغلق الخط، تعاود الاتصال، هى فتاة جميلة، ومجتهدة، أرافقها منذ سنة، لكنها فى كثير من الأحيان مملة، ثرثارة فى أحيان آخرى، كلانا يعلم أن الآخر فقط يستأنس به، ليس أكثر، على أى حال هى أقل جنونا من نور، لم أطق جنونها أكثر من ثلاثة أشهر، ولكنها لم تكن تقليدية مثل هديل، أو مغرورة متغطرسة كيسراً، كثيرات من رافقت بعد ياسمين، ولم استمر مع واحدة منهن أكثر من ستة أشهر، يبدأ بعدها السأم المتبادل، والشكوى المشتركة بينهن من برودى تجاههن أو أنانيتى المفرطة فى قضاء وقتى، وحياتى، كان معهم بعض الحق، هدى أكثر من استمر معى، لكن على أن أفكر مجددا فى ذلك، مؤخرا أصبحت تصيبنى بالملل فى كثير من الأوقات، أشك أننى سأؤلمها لو قررت الانفصال، نعم تسببت فى آلام لأخريات، لكنى أشعر أن هدى لن تتألم . لديها معى كغيرها رصيد من الحفلات والرحلات، منحنا فبها بعضنا البعض الكثير من المرح والأوقات اللطيفة، أعتقد أن وقت التغيير قد حان.

يرن الهاتف مجددا، يالك من لحوحة مملة يا هدى، اعتزمت أن أغلق الهاتف هذه المرة، إلا أن الشاشة لم تظهر صورتها، بل صورة على.

....

"على يا حبيبى، بأكد عليك تفضى نفسك آخر الأسبوع عشان هنروح نزور الجماعة."

خاطبتنى أمى بهذه العبارة قبل أن تذهب لقضاء بعض أمورها، أخبرتها أنى لست بناسٍ لهذا الموعد، ابتهجت بذلك، منحتنى قبلتين على جبينى، ودعوات كثيرة بصلاح الحال.

عدت لأمى بالكويت منذ عامين بعد دراسة ومحاولات عمل بالقاهرة استمرت سبع سنوات، كنت أظن أن عودتى لها ستكفل لى هدوءا ونجاحا مرضيا فى حياتى وعملى، حيث أن فرص العمل حسبما اعتقدت وقرأت كانت متوفرة وبشكل أفضل هناك، خلال هذين العامين اقتنيت سيارة جيدة ، تحصلت على رواتب ممتازة، أشياء لا أتوقع فعلها لو استمريت بالقاهرة، لكن هل أنا حقا سعيد؟ يوما بعد يوم أشعر بأن ثمة شيئا ما تغير، لم تعد

الكويت نفسها بالنسبة لى، لم تعد أمى كما كانت، وكنت أنا أيضا شخصا آخر عاد إليها، أعلم أنها تشعر بذلك ولكن لا تريد أن تصرح به، صرت لا أجد سكينتى فى الحديث إليها، لم أعد أجد المرح والضحك الكثير فى جلساتنا سويا مع اخواتها، وأصدقائها، هى تعلم ذلك، تسألنى من وقت لآخر عما يضايقنى، أنكر وجود ذلك، أحيانا لأنى أعلم أنها لم تعد كما قبل، تفهم ما أقول، تشعر بما يشغلنى، ترى ما لا أرى، لربما تعبت من الحياة، أصبحت متأكدا أن كلانا لم يعد يفهم الآخر، أحيانا أتبع المبدأ الذى اتبعته أيام الدراسة، لن أخبرها بأى شىء؛ لئلا أثير قلقها على .

هى تعلم ذلك أيضا، تتقبله أحيانا فتحاول الحنو علىّ وفقط دون أن تطفو للسطح مخاوفها أو استنكارها هذا التباعد بيننا، وأحيانا لا تطيقه، تفتعل المشاجرات، تنعتنى بالعاق أو بالأنانى، وأنا أيضا أفهم ذلك، كلانا نبدو و كأننا نحاول التعايش مع ما طرأ من تغير وفقط .

أمى لخصت كل شيء فى أنها تريد رؤية أحفادها قبل أن تموت، تلح على كل يوم أن أتزوج، أما أنا لم أكن متأكدا من رغبتى فى الزواج، لم أكن متأكدا من رغبتى فى البقاء طويلا بالكويت، أو رغبتى بالعودة الى مصر، كنت أرواغها من حين لآخر، اختلق أعذار، تصدقها أحيانا، وأحيانا تصرخ فى وجهى أنى أراوغها، وتستمر فى القول بأنى أخيب أملها، ولا أريد تحقيق آخر أمانيها، يفيض بي الكيل أحيانا، أفكر بالعودة الى مصر، لكن يمنعنى كبر سنها، يغرينى الوضع الوظيفى، وأقرر البقاء، هكذا نوبات تصيبنى وتصيبها، كلانا يدرك أن الآخر تغير.

مؤخرا غيرت رأيى، سأتزوج، ربما لوشاركتنى فتاة حياتى سأشعر أن الأمور تغيرت، وأن تأرجح قلبى قد خفت حدته، ربما ازداد ارتباطا بالكويت فاهدأ، وربما يمنحنى الزواج طموحا آخر أو بداية جديدة، نعم لم لا، ولكن ماذا لو لم يحدث ذلك، حقيقة لا أتخيل أنى سأتزوج فتاة عرفتها فقط لأن أهلنا أرادوا ذلك، وكلانا سيتصنع الحب أو الاهتمام لأن أهلنا باركوا ذلك، لست متأكدا من شئ.

لما أغلقت أمى الباب خلفها، نظرت فى ساعة الحائط، الثانية عشرة ظهرا، قرأت تاريخ اليوم، ظللت أردده، يا ربى كيف نسيت، قمت بسرعة، أمسكت بالهاتف، مكالمة مهمة على أن أجريها، اتصلت بياسر.

....

ثمة مشاعر كثيرة مختلطة شعرت بها عندما شاهدت صورة على من خلال شاشة الهاتف، تناسيت حالة الخدر التى أشعر بها أمسكت بالهاتف، اعتدلت فى سريرى، وفتحت الاتصال.

مضت شهور منذ آخر مرة سمعت فيها صوت ياسر، لن أقول تشاغلت بأمورى، حقيقة لم أكن أعرف ماذا أقول عن عواقب قرارى بالعودة للكويت، عندما استمر رنين الاتصال تسرب الى شعور بأنه لم يرد، ربما ساخط على غيبتى وعدم سؤالى، أو ربما لن يرد على الهاتف فى ذلك اليوم الخاص، لكن كل ذلك تبدد و ارتياح كبير افتقده عاد الى عندما جاء صوته عبر الاتصال.

- ازيك يا على، عاش من سمع صوتك .

- ازيك يا ياسر ياللى مبتسألش، كويس انك لسه مسجل النمرة.

تبادلنا الضحك والمزاح، مضى وقت طويل منذ آخر مرة هاتفت على، مؤخرا فقدت القدرة على الانتظام فى التواصل مع أى شخص .

- طمنى على أخبارك يا على، وأخبار الكويت معاك، مين قدك يا سيدى .

- اهو كلامك ده اللى جايبنا ورا، الحال ماشى، أمى شايفالى عروسة يا سيدى.

- طيب مبروك مقدما يا حبيبى، بجد فرحتنى، شد حيلك بقى، ربنا يسهلك الأحوال.

- وانت عمل ايه يا سى ياسر، أخبارك ايه مع الشغل، وايه أخبار يسرا.

ضحكت طويلا ثم قلت : الشغل زى ما هو بقرفه ومشاكله، بس زودولى المرتب شوية، انما يسرا راحت لحالها هى واللى بعدها واللى بعدها.

ضحكت وقلت: يخرب بيت عقلك لسه ضايع زى ما أنت، يا ابنى اركز كده، بدل ما أنت كل شوية مع واحدة شكل، طمنى أنت كويس؟

كنت أعلم أن على يسأل عن حالتى فى هذا يوم تلك الذكرى التعيسة، ولكنه لم يرد التصريح بذلك، أظنه يعتقد أنه بذلك يساعدنى، أجبته بعد برهة : زى كل سنة يا على.

- أنت ليه مش عاوز تنساها وبس؟ مش راضى تسمع الكلام، يا حبيبى عيش حياتك، أنت حر نفسك، متقيدهاش بوهم قديم، ولا بعلاقات شكلية، قدر الحرية اللى حياتك سمحالك بيها يا ياسر أكتر من كده، عشان قيمتها كبيرة قوى بس أنت مش شايفها.

تنهدت طويلا، لم أرد أن أتجادل مع على فهو دائما متعصب لرأيه، لم أقل له أنها لعنتنى قبل أن تذهب، أنى أريد نسيانها كل

يوم لكن لا أستطيع، أن ما يحسبه حرية هو مجرد تيه كبير يحيط بى، قلت له: عارف يا على أنا نفسى اعمل زيك وأرجع لأهلى، حاسس ان ده هيبقى أحسنلى، متفائل بتجربتك، بقول جايز لو رجعت لعيلتى أمورى تمشى، بس للأسف بقى صعب، لو رجعت بلدنا مش ضامن اشتغل، ولا انسجم مع الحياة هناك، أنت عارف كويس مشاكلى مع الجماعة، اوعدك لو اتحسنت الأمور هعمل زيك، ابسط يا سيدى هسمع كلامك مرة .

تمنيت لو أخبر ياسر أنه لا يفهم شيئا وأنه خاطئ فى كل ما تصور عنى، فكرت أن أخبره أنى لست متأكدا من صحة ما فعلت، أن العودة لم تكن مريحة، بل أضافت ثقلا جديدا على كتفى، لكنى أعتقد أن هذا اليوم غير مناسب لهذا الكلام، قررت أن من الأفضل إنهاء المكالمة لربما يظل كلانا محتفظا ببيص أمل، أفضل من أخبار خيبات متبادلة.

- ياسر شد حيلك كده، و ابقى طمنى عليك.

لم يرد، فقد انقطع الاتصال.

الجائزة

كانت القاعة تلمع بأضواء بسيطة انعكست على جدرانها الداكنة، فى حين يجلس على مقاعدها المتراصة بعناية، جمعٌ يسير من الزملاء، وقد احتلت صورة كبيرة له صدر القاعة، ووضعت منصة أنيقة خلفها، جلس عليها مدير الشركة، ونائبه، وبعض أعضاء مجلس الادارة.

همهات كانت تسرى من وقت لآخر، يقاطعها صوت صفير مكبر الصوت الذى يختبر ويعدل من وقت لآخر، تحركات تبادلية لعمال البوفيه لتوزيع المشروبات على الحضور، جلست وحدى فى الصف قبل الأخير، لم أحب أن أظهر، فلم أود سماع كلمات تعازى أو مواساة، فقد كان ثقل السر يخنقنى هذه المرة.

اليوم تمر الذكرى الخامسة لوفاة صديق عمرى المفاجأة لكل الناس سواى، وقد نظمت الشركة التى عملنا سوياً بها حفل توزيع جائزته لأول مرة بناءً على اقتراح من زوجته، كانت قد خصصت جزءا من ثروته كجائزة للموظف المثالى كل عام لتحفظ ذكراه الطيبة بين الجميع.

تركت الشركة بعد وفاته بشهر، سافرت الى الخارج، قطعت عهداً على نفسى ألا أعمل فى هذا المكان مجددا، فلم اكن أستطيع أن أحيا بين من عرفوه وبداخلى سره الأخير طويلاً، فقررت الرحيل أو الهروب إن شئتم الدقة، وعندما عدت فى زيارة عاجلة، وافقت ذكراه التى لم أنسها قط، ذلك اليوم الذى تمر عليه السنين وهو يقاتل تأثير الزمن ويهزمه شر هزيمة كل مرة، دعتنى زوجته لحفل جائزته الأول، وبالرغم من كم الأعذار التى حاولت اختلاقها، إلا أن توسلاتها ودموعها أجبرتنى على الحضور اليوم، فلم أرغب أن تظن بى جحودى لذكراه.

يفتتح المدير الحفل بكلمات متكررة فى تلك المناسبات، يعدد خصائل الراحل، يمتدح تفانيه فى العمل، نجاحه فى منصبه، تتخلل كلماته فواصل من تصفيق الحضور، ونظرات مواساة وتعاطف يوجهونها لزوجته على المنصة، أو بنسبة أقل يوجهونها لى، أنظر لصورته ذات الابتسامة الهادئة، أتذكر رسالته النصية الأخيرة عشية هذا اليوم المقاوم للزمن، تمثل رسالته أمامى، تتراص عباراتها أمام ناظرى.

" لم يعد هناك شىء يستحق البقاء من أجله، كل تلك الأضواء لم تعن لى شيئا فى النهاية، أنت تعلم جيدا أننى لم أختر شيئا من هذا أو ذاك، لا عملى، ولا زوجتى، ولا أى شئ، تبدو الحياة حملا ثقيلا يا صديقى، أو ربما كما تقول هى دائما ثقيلة، لكن كما كنت أقول لك دائما، الحياة تحتاج لوردة دائما يساعدك عطرها على الاستمرار، وقد ذبلت وردتى منذ زمن، عندما درست مالم اختر، وعملت فيما لم أحب، وها هى من أحببت ماتت وحيدة بعيدة، تركتها منذ زمن ارضاء للعائلة، وعندما طلبت رؤياى فى أضعف لحظاتها، منعتنى هالة الضوء وجبنى من البقاء بجانبها، يا صديقى لم أعد احتمل كل هذا الجبن، لم أعد أحتمل كذبى على نفسى وعلى من حولى بادعاء الرضا، لا أستطيع أحيا حياة شخص آخر أكثر من ذلك، يا صديقى آن لى أن أرتاح"

انتزعنى صوت زوجته من أفكارى، وقفت على منصة الحفل تتحدث عنه، تقول "كان مخلصا لكل من حوله، متفانيا لعمله، كان نعم الزوج و الصديق، وعلى الرغم من الألم الشديد ورحيله

المفاجئ المفجع، فقد اخترت أن نحفظ ذكراه طيبة، وأن يكون لنا مثلا فى الحب والعطاء والتفانى، والنجاح."

" يا صديقى لم أعد احتمل كل هذا الجبن، آن لى أن أرتاح، ستصلك هذه الرسالة، وبعدها بقليل سيكون كل شئ قد انتهى، ستجدنى فى نفس المكان الذى تعودت أن أذهب إليه لأرتاح، لقد حاولت كالعادة أن يبدو كل شىء طبيعيا وهادئاً، ستكون أنت الوحيد الذى تعلم ما حدث، ورجائى الأخير أن تحفظ بيننا آخر سر، لا تلم نفسك أو تشعر بالتقصير، ليس لك ذنب فى شىء، حتما سأفتقدك، ولكن آن لى أن ارتاح. "

قبل خمسة أعوام فى مثل هذا اليوم، قرأت رسالته تلك، كان بامكانى تخيله وهو يقود سيارته متجها الى بيته الشاطئى، يخرج بكرسيه المتأرجح الى الحديقة، يجلس يبكى نفسه طويلا، يتناول جرعة قاتلة من أقراصه المهدئة، يتخلص من علبة الأقراص بدفنها تحت الكرسى، كما وجدتها بعد ذلك، يأوى الى سريره، ويموت موتا معلنا لى مفاجئا لكل من حوله، تاركاً سراً كالجبل على كتفى، يتثاقل مع مرور الزمن، بداية من تلك اللحظة عندما

اتصلت بى زوجته لتخبرنى بموته، حتى تلك اللحظة وزوجته تأبنه أمام الحضور، تعتقد أنه أحب هذا العالم وانتمى إليه.

صوت زوجته ينادى باسمى، تصفنى بصديق عمره المخلص، تقول أنه لا يوجد أفضل منى لأقدم جائزته، لم تخبرنى ذلك مسبقا، فقط أرادت منى الحضور، لم تخبرنى أنى سأتحدث قط، طيلة خمس سنوات التزمتُ الصمت تجاه موته المفاجىء واليوم سأكسره أمام هذا الجمع ! كل تلك الأفكار تعصف برأسى وأنا أقوم من مقعدى مهتزاً، أنظار الكل تتجه نحوى، تقدمت بخطوات مترددة نحو المنصة، لا أدرى ماذا أقول، هل أخبرهم بالحقيقة، هل أقول احرصوا على بقائكم فى عالم تحبونه وأفشى سره ؟ أعلم أنه لو قدر له الحديث الآن لقال ذلك، لم يكن لدى كلمات محددة، تحسست مكبر الصوت، قلت بصوت متهدج : أشكر من منحنى فرصة تواجدى اليوم، تنحنحت ثم أكملت بحلق جاف: كان الراحل صديقا وفياً وأخا بكل ما تحمله الكلمة، نموذجاً يحتذى به فى حب العمل والتفانى فيه، وإسعاد من حوله. سعلتُ بعنف، ازداد جفاف حلقى، جرعت بعض الماء، ثم

فتحـت ذلـك المظـروف الأبـيض وقـرأت اسـم الموظـف المثـالى، نزلـت مسرعاً، غـادرت القاعـة، والحفـل، و ثمـة عبـارة واحدة كانـت تتردد بداخلى " آن لى أيضا أن أرتاح".

الفهرس

ثلاث ريشات ٧

وتر أخرس ١٣

المجنون ١٩

ذهب ٢٥

صورة ٣١

دوار ٣٧

فى المعرض ٤٣

فى وقت متأخر ٤٩

كوباية شاى ٥٧

محجوب ٦٥

ضفيرة ٧٥

نشـــاز ٨١

لا يزال الباب يصفق ٨٧

مكـــالمة ٩٥

الجائزة ١٠٧